معتقدات وطقوس الولادة في العائلة التقليدية الجزائرية
ـمقاربة انثروبولوجيةـ

Beliefs and birth rites in the traditional Algerian family
-Anthropological approach-

الطالب/ عصام براهم
طالب سنة رابعة دكتوراه،
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،
جامعة أبي بكر بلقايد -تلمسان
brahamissam@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2018/09/06 تاريخ القبول: 2018/12/09 تاريخ النشر: 2018/12/31

ملخص:

نهدف من خلال هذا المقال إلى الكشف عن الدلالات الرمزية والثقافية لمعتقدات وطقوس الولادة في العائلة التقليدية الجزائرية، التي تعكس رؤية المخيال الاجتماعي للجسد الأنثوي المنجب والعاقر، عبر ثنائية الخصوبة والعقم، من خلال معتقدات ترسم صورة مشرقة الملامح للمرأة المنجبة في مقابل صورة شديدة القتامة والقسوة للمرأة العقيمة، وطقوس تكشف عن مظاهر التمييز بين الجنسين في العديد من المناسبات العائلية التي يحظى بها الذكر ويتم بموجبها تفضيله على الأنثى.

الكلمات المفتاحية: المعتقدات; الطقوس; العائلة التقليدية; المخيال الاجتماعي.

Abstract:

Beliefs and birth rites in the traditional Algerian family - Anthropological approach.

We aim through this article to reveal the symbolic and cultural connotations of beliefs and birth rites in the traditional Algerian family, these beliefs that reflect the vision of the Social imaginary of the fertile female body and sterile, and Rituals birth that reveal manifestations of gender discrimination.

Keywords: beliefs; rituals; traditional family; The Social imaginary.

مقدمة:

تشكل الولادة حدث رمزي بالغ الأهمية في العائلة التقليدية، باعتبارها كسبا للرهان بالنسبة للزوجين حديثي العهد بالزواج في العائلة، فهي تأكيد لفحولة الزوج وتحقق من خصوبة الزوجة، هذه الخصوبة التي تعبر عن رؤية المجتمع التقليدي للجسد الأنثوي المنجب والعاقر، من خلال معتقدات ترسم صورة مشرقة الملامح للمرأة المنجبة "الأم" التي تُمنح مكانة وسلطة اجتماعية باعتبارها الضامنة للاستمرارية ولإعادة إنتاج النوع الإنساني، في مقابل صورة شديدة القتامة والقسوة للمرأة العقيمة "العاقر" التي تُمنح الازدراء والاحتقار باعتبارها كائن بلا قيمة وعاجز تماما عن العطاء، كما أن طقوس الولادة تعكس نمط العلاقة القائمة بين عالم الرجال وعالم النساء، من خلال مظاهر التمييز بين الذكر والأنثى التي تتجلى في طريقة استقبال المولود، والعديد من الممارسات التي يحظى بها الولد ويتم بموجبها تفضيله على الفتاة في العديد من المناسبات والاحتفالات العائلية.

سنحاول من خلال هذا المقال الإجابة على مجموعة أسئلة: كيف يتمثل المعتقد الشعبي المرأة المنجبة والمرأة العاقر في العائلة التقليدية؟ وما هي أهم طقوس الولادة في العائلة التقليدية؟ وما دلالاتها الرمزية والثقافية في المخيال الاجتماعي؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة حاولنا التعريف بأهم المصطلحات: المعتقدات، والطقوس، والعائلة التقليدية.

أولا: تعريف بعض المصطلحات

1) المعتقدات:

يقصد بالمعتقدات تلك الأفكار والأحاسيس التي تحرك الناس إزاء الظواهر الطبيعية والشاذة، كتصورات الناس عن الزلازل والخسوف، وكذلك تصورات الناس عن أسرار بعض الظواهر الفيزيقية والنفسية كالأحلام والنوم والميلاد والولادة والخلاص والموت ورؤية المستقبل.[1] كما أنها نسق فكري يظم الاعتقاد والشعائر والطقوس وغيرها، يزود الشعب بأسباب الخلق والحكمة والرشد في الأفعال.[2]

2) **الطقوس**:

يقصد بالطقوس، السلوك -الفردي أو الجماعي- المتكرر، عبر كل زمن وجيل. فهو استنادا إلى ذلك، إعادة خلق وتحيين لماض غامض غالبا، لكنه يأخذ معناه عند الذين يستخدمونه على انه فعل ديني[3]، كما أن الطقوس والمعتقدات يتبادلان الاعتماد على بعضهما بعضا، فرغم أن الطقس يأتي كنتائج لمعتقد معين فيعمل على خدمته، إلا أن الطقس نفسه ما يلبث حتى يعود إلى التأثير على المعتقد فيزيد من قوته وتماسكه[4].

3) **العائلة التقليدية**:

يقصد بالعائلة التقليدية تلك العائلة التي لا يزال أعضاؤها خاضعين إلى السلطة الأبوية ويعيشون تحت سقف واحد اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وعمرانيا، محافظين ومحتفظين على عادات وتقاليد ومعتقدات السلف. فالعائلة التقليدية من حيث المفهوم والفاعلية، منظومة بشرية متماسكة تماسكا عضويا داخليا وفق منطق بيولوجي واجتماعي وثقافي وعقائدي، استمد مادته ونظامه بطريقة مباشرة من القرابة[5].

4) **المخيال الاجتماعي**:

يقصد بالمخيال الاجتماعي مجمل التصورات التي تستثار في أية لحظة بشكل لاواعي وكنوع من رد الفعل[6]، في إطار محدد بنسق رمزي وثقافي. وهو الآلية التي يستعيد بها الأفراد ذواتهم التاريخية بهدف إنتاجها وإعادة بنائها في صورة جديدة قد تظهر في سلوكاتهم الحاضرة أو توقعاتهم المستقبلية[7]. كما أن المخيال بنية أنثروبولوجية موجودة لدى كل الأشخاص وفي كل المجتمعات تتشكل تاريخيا في الذاكرة الجماعية أو في الذهن[8].

ثانيا: معتقدات الخصوبة والعقم في العائلة التقليدية

يعتبر مجرد الحمل بالنسبة للزوجين حديثي العهد بالزواج في العائلة التقليدية، كسبا لرهان زواجهما، باعتبارها لحظة فارقة في حياة الزوجين فهي لحظة تأكيد فحولة الزوج وتحقق من خصوبة الزوجة، اللذان كثيرا ما حاصرتهم أسئلة الأهل والأقارب حول الحمل[9]، ومع إعلان الحمل الذي يتم مع قدر من التمنع والتردد بين أفراد العائلة، تسارع أم الزوج والزوجة لاتخاذ احتياطات مشددة للحامل تتم بشيء من السرية والتكتم عن المحيطين بها، خوفا من شرور الإنس والجن، حيث يسود الاعتقاد داخل العائلة أن

"القرينة" تتربص بالمرأة الحامل وهي جنية شيطانية متخصصة في إجهاض الحوامل وقتل الأجنة والأطفال الرضع، إضافة إلى الخوف من الإصابة بالحسد خاصة من المرأة العاقر، حيث يسود الاعتقاد في المخيال الاجتماعي، أن العاقر محملة بالنوايا السيئة ضد النساء اللاتي يتمتعن بالخصوبة وعلى الأخص الحوامل منهن. لأنها تريد من شدة غيرتها أن تصبحن معها إلى الموت[10]، كما أن المرأة العاقر هي الأكثر تعرضا للاتهام بأعمال السحر نتيجة الغيرة.

وبذلك تكشف ثنائية الخصوبة والعقم عن رؤية المجتمع التقليدي للجسد الأنثوي المنجب والعاقر، حيث ترتسم في المخيال الاجتماعي صورة مشرقة الملامح للمرأة المنجبة "الأم" التي تُمنح مكانة وسلطة اجتماعية باعتبارها الضامنة للاستمرارية ولإعادة إنتاج النوع الإنساني، في مقابل صورة شديدة القتامة والقسوة للمرأة العقيمة "العاقر" التي تُمنح الازدراء والاحتقار باعتبارها كائن بلا قيمة وعاجز تماما عن العطاء.

1) **المرأة العاقر**:

توصف المرأة العاقر في العائلة التقليدية بالعديد من الصفات الرمزية، فيقال عنها إن «دارها خالية»، لأن «الدار بلا صغار كيما جنان بلا نوار»، كما توصف العاقر بأنها كالشجرة اليابسة بلا ثمر أحل الله قطعها، فهي أشبه بالأرض الجدباء القاحلة التي لا تعطي فيهجرها أصحابها كونها أرضا بورا غير قادرة على العطاء. كما يصفها المثل الشعبي «لمرا بلا ولاد كيما الخيمة بلا وتاد» فلا معنى، ولا روح في البيت بدون أولاد يضمنون الاستمرارية والامتداد. كما يستخدم لفظ «ماتضناش ومتخلفش» كدلالة على الاستخلاف في الأرض، فدور المرأة في المخيال الاجتماعي مرتبط بوظيفة الإنجاب وبصورة "الأم" الضامنة للاستمرارية ولإعادة الإنتاج الإنساني، حيث ينظر إليها بالأساس كرحم منجب للجنس والحياة.

وبذلك تكون النظرة إلى المرأة التي لا تنجب من قبل المحيطين بها بين الرثاء والإشفاق والضيق والتبرم بل والنفور أيضا فبعضهم يتعاطف معها وينظر إلى عقمها باعتباره مرضا وابتلاء من الله، ويؤمنون أن لكل داء دواء وآخرون ينظرون إليها على أنها مخلوق ناقص، بل كائن بلا قيمة وعاجز تماما عن العطاء فتعامل المرأة العاقر بازدراء واحتقار, فمن الشائع أن يقال: «لا سعايا لا ظنايا»، و«المرا اللي ما عندهاش صغار مربطها كيف مربط الحمار». ويفسر عقمها على أنه لعنة سماوية، فالعاقر لابد أنها خرقت بعض القواعد وخرجت عن

المعيار وتخطت الحدود بصورة إرادية أو غير إرادية فكان العقم هو الوصمة التي وصمت بها من جراء فعلتها، فتلاحقها النظرات والهمسات أينما حلت، وأحيانا توجه لها الشتائم التي تذكرها بعقمها وكونها «ميتة حية» وأنها كالشجرة بلا ثمر احل الله قطعها، وغالباً ما تطلق المرأة العاقر، أو يتم الزواج عليها، بل إن الأمر يزداد قسوة عندما ينصح الزاهد في الزواج بأن يتزوج امرأة عاقرا بدلا من الإعراض عن الزواج كلية، فيقال له: «خذ عاقر، واسكن مهاجر، وبيع حاضر بحاضر».

هكذا تلجأ المرأة العاقر لكل الوسائل من أجل حدوث الحمل، بدءًا بالأطباء، ثم القابلات، فالصُّلاح "الأولياء"، وإذا لم يبق في حيلتها حيلة، تلجأ للسحرة والمشعوذين، ولعدد كبير من الطقوس، أبرزها الاستشفاء بالماء، باعتبار الماء عدوًا لدودا، وسلاحا ماحقا للجن، كما أنه يُغرق الشرور، كالعكس أو التابعة والسحر. حيث يسود الاعتقاد في المخيال الاجتماعي أن تأخر الإنجاب، سببه رش المرأة بقطرات من الماء الجنائزي، فالماء المحمل بالموت يحمل إليها موتا معنويا، مادامت حياة المرأة في الزواج والإنجاب. ولن يستطيع تخليصها من تلك التأثيرات الشريرة، سوى الماء المقدس حيث يعتقد أن هذه العقدة "العقم" تفكها بركات أولياء الله الصالحين خصوصا إذا تواجد الماء في محيط ضريح الولي، أو ماء سبعة أبار أو سبعة وديان أو سبعة عيون أو سبع موجات من البحر، اعتقادا في أن الماء فيه بركة أو قوة روحية تخلص من الموانع التي تقف أمام المرأة العاقر.

2) المرأة المنجبة:

على العكس من المرأة العاقر يمنح المعتقد الشعبي المرأة المنجبة، مكانة عالية حيث ستحظى بتقدير واسع من جانب الجماعة القرابية، بل إنها تلاقي اهتماماً ورعاية خاصة من كل المحيطين بها، فيتم إعفاؤها من معظم الأنشطة اليومية، وتمنع من رفع الأشياء الثقيلة، والوقوف في المطبخ فترات طويلة، كما تعفى من زيارات الأقارب، خاصة المعروفين بالعين الحاسدة، كما تمنع من مقابلة النساء العقيمات، وتمنع كذلك من زيارة المقابر وحضور المآتم، وتنصح الحامل بالنظر إلى الأشياء الجميلة وخاصة الأطفال حتى يأتي المولود جميلاً، وبعدم النظر إلى الأشياء القبيحة والمفزعة كالقطة السوداء والكلب الأسود والأفراد المشوهين أو المعاقين، من أجل المحافظة على الحمل وسلامته.

كما تلاقي الحامل رعاية خاصة، حيث تحضر لها أطعمة مخصوصة كالتمر والحليب وزيت الزيتون، وبالإضافة إلى ذلك يتم تلبية كل رغباتها أثناء فترة الوحم، حيث ثمة اعتقاد راسخ في المخيال الاجتماعي أنه إذ لم يتم تلبية رغبة الحامل، فإن ما تشتهيه سيظهر على جسد المولود، على شكل "وحمة" وتروى في هذا الصدد العديد من الحكايات الشعبية التي تكشف عن هذا المعتقد والتأثير السيئ لعدم تلبية رغبات الحامل كظهور ثمرة من الخضروات أو الفاكهة أو قطعة لحم... إلخ على جسد المولود.

إن الاهتمام برعاية الحامل وتلبية رغباتها في العائلة التقليدية لا يعني -في أغلب الأحيان- اهتماماً بالمرأة في ذاتها ككائن اجتماعي، وإنما يعكس رؤية المجتمع للمرأة كجسد منتج يساهم في إعادة إنتاج النوع الإنساني، كما تعكس هذه الرعاية أهمية الإنجاب وقيمته الاجتماعية، باعتباره معادلة تبادلية وتعويضية بالنسبة للمرأة التي تمَنح العائلة أفرادا يسهمون في تقوية البنية الاجتماعية والقرابية، وتدعيم البنى الاقتصادية داخل المجتمع، وتُمنح بذلك "المرأة المنجبة" مكانة وسلطة اجتماعية، تحظى من خلالها بتقدير واسع من جانب الجماعة القرابية، بالإضافة إلى أن زواجها سيدعم ويزداد رسوخاً وثباتاً، خاصة إذا كان المولود ذكرا.

3) معتقدات التكهن بجنس الجنين:

إذا كان مجرد الحمل كسب للرهان في العائلة التقليدية وخروج المرأة من دائرة العقم، فان هذا الرهان لن يكتمل إلى بإنجاب ذكر، الذي يعتبر نقطة الالتقاء التي تتحقق فيها مصالح الجميع في العائلة التقليدية، إذ أنها تحقق للمرأة الأمن النفسي ويجد فيها الرجال تجسيما لذهنيتهم الذكورية وتكريسا لامتدادهم المرغوب[11]. باعتبار أن الذكر في المخيال الاجتماعي حامل اسم العائلة، والعامل عل تمديديها من خلال الإنجاب.

مع بداية الوحم تبدأ الجدة والعجائز المقربات التكهن بجنس الولود، حيث يعتقد أن الوحم يختلف باختلاف الجنين، فإذا كان الجنين ذكراً، فإن المرأة تتوحم على الحمضيات والحار من الطعام أما إذا كانت أنثى فإنها تتوحم على الحلويات والفواكه. كما يمكن التكهن بجنس الجنين منذ الوقت الذي تشعر فيه المرأة الحامل بالحركة، إذ يعتقد أن الجنين الذكر احكم وأقوى من الجنين الأنثى، ولذا فان حركته تسبق حركتها، فهو يتحرك في نهاية الشهر الرابع بينما تتأخر حركة الأنثى حتى منتصف الشهر الخامس أو نهايته كما أن الجنين

الذكر يكون موضعه في جهة اليمين، أما الأنثى فتكون في جهة اليسار، بين الضلوع مما يجعل بطن المرأة اقل علوا من بطن التي يتوقع منها الولد، الذي يكون حمله خفيفا، على عكس الأنثى الذي يأتي حملها ثقيلا. ويقال أن الجنين يحدث أمه إذا كان ذكرا قائلا: «أزياني ياما أزياني وكي تحطيني أشياني»، أي أن حمل الولد يجعل وجه أمه جميلا، أما الأنثى فتقول لأمها: «أشياني ياما أشياني وكي تحطيني أزياني» أي أن حمل الفتاة يغير من وجه الأم بل أنه يجعله قبيحا.

تدل هذه المعتقدات على أن تحقق الحبل ليس فعلا بيولوجيا بقدر ما هو ممارسة اجتماعية مثقلة بالتمثلات الثقافية والتصورات الرمزية التي تعكسها الثنائيات المتقابلة التي تطوق الذكورة والأنوثة نحو الحار والبارد، القوي والضعيف، اليمين واليسار، المرتفع والمنخفض، الخفيف والثقيل، الجميل والقبيح. فكل الصفات الايجابية هي من نصيب الذكر وما عاداها يليق بالإناث، وهو أمر يوحي بما ترسخ في المخيال الاجتماعي من تضاد بين الذكورة والأنوثة، فالإيجابي هو دوما ذكوري، والسلبي هو دوما أنثوي.

لقد كانت المرأة في العائلة التقليدية مهووسة بإنجاب الذكور فهم حاضرها ومستقبلها ومرفأ الأمان المنشود، باعتبار أن الذكر يمنح الأم قيمة اجتماعية ويسهم في استمرار النسب، وكلما كان عدد الذكور كبيرا كلما عززت المرأة مكانتها، لذلك يحتفى بهم، وهو ما عبر عنه المثل الشعبي "بيت رجال ولا بيت مال"، فالمال مهدد بالزوال وهو مرهون بكسب الرجال، كونهم يدعمون العائلة ويثرونها بقوة عملهم، فهم الباقون فيها. وبذلك شكل الذكر في المخيال الاجتماعي حامل اسم العائلة، والعامل عل تمديدها وهو الحامي لها، أما الأنثى فهي تثري بيوت الغير.

إن تفضيل المولود الذكر على المولود الأنثى بالمجتمعات الذكورية والإعلاء من قيمة الذكر والحط من شأن الأنثى، مقوم أساسي للذهنية الذكورية، كما إنها ظاهرة كونية تشترك فيها جميع الثقافات. لمّا يُولد وَلدٌ في منطقة لوكانيا يُهرق إبريق ماء في الطريق للدلالة على أن المولود الصغير منذور لعبور كل دروب العالم، و لما تولد بنت يهرق إبريق ماء فوق الموقد للدلالة على أنها ستقضي حياتها سجينة جدران البيت[12]، كما أن الأجراس كانت تدق في البوادي قديماً مدة أقصر أثناء تعميد البنت، وأثناء دفن المرأة، وهذا يعني أن عالم الأصوات كان تقسيماً جنسياً. كما أن عبارة "أنها بنت" في إفريقيا هي عبارة تدل على التعجب مما حصل (ولم يكن مرغوبا في حصوله) ترن في تجويف أذن الأم كتعاسة مزدوجة: تعاستها

هي و تعاسة ابنتها التي بدأت منذ ولادتها. يتم كل شيء كما لو أن البنت لا قيمة لها أو أنها لعنة[13]. كما تكتفي القابلة في العائلة التقليدية الجزائرية بكلمة واحدة تعلن بها عن ميلاد الأنثى مثل "لفتة" بمنطقة تلمسان، وكابويا" بمنطقة قسنطينة و"خنفوسة" بمنطقة سعيدة[14]، و"حطابة" بمنطقة تبسة.

هكذا شكلت الأنثى خيبة أمل الأم والعائلة، وتلتصق مسؤولية إنجابهن بالأم وحدها فهذا هو موقف المجتمع والعائلة من المرأة التي تلد إناثا فقط، موقف يصنفها بنفس مستوى العاقر، كلتاهما جالبتان للشر، مسؤولتان عن ضياع اسم العائلة.

ثالثا: طقوس استقبال المولود في العائلة التقليدية

يغلف جسد المولود منذ لحظة الولادة بالكثير من الطقوس من تعاويذ ورق وحجب. حيث يسود الاعتقاد في العائلة التقليدية أن المولود، يواجه مخاطر جمة عند خروجه للعالم الجديد، ويتم خلال هذه المرحلة حمايته من المؤثرات الخارجية التي تمثل خطرا على حياته وحياة والدته، وبذلك يصبح الحرص على سلامة المولود و"النفساء" وحراستهما من الجن، والتابعة، والعين الشريرة، واجبا عائليا يقع على عاتق كل العائلة، وتستغرق هذه المرحلة الحرجة في حياة المولود وأمه على الأقل من سبعة أيام إلى أربعين يوما.

1) طقوس اليوم الأول:

بعد الولادة تقوم القابلة بقطع الحبل السري وربط سُرة المولود بخيط احمر يقطع من "حولي" جدته، باعتبار أن الجدة "العجوز المسنة" هي المرأة الوحيدة التي كان لها متنفس في كنف أبنائها الذكور، بحيث كانت تتخذ القرارات بقوة وحرية تامة[15]، داخل العائلة التقليدية. كما ترتبط سرة المولود بالعديد من الممارسات، فغالبا ما تقوم إحدى القريبات العمة أو الخالة بدفن المشيمة في الأرض، وفي مكان يتكتم عنه، وذلك تجنبا لكل ما كانت له علاقة بدم الولادة وبالنجاسة، خشية استعمالها في السحر، فكل جزء ينفصل عن البدن يبقى محتفظا بقوة حيوية ويمكن له أن يؤثر في حياة الإنسان. بالإضافة إلى ذلك تربط سُرة المولود في عنق ناقة أو كبش أو في نخلة حيث يسود الاعتقاد أن هذا الجزء الحي من جسم الإنسان والمرتبط بالخصوبة كفيل بزيادة القطيع أو إخصاب الأرض كنوع من

البركة. كما ترمى سرة المولود أمام المسجد تيمنا وأملا في أن يكبر الطفل ويكون من أهل المساجد وحفظة القرآن.

كما يحرص الأهل في اليوم الأول من الولادة على إسماع الأذان في الأذن اليمنى والتكبير في الأذن اليسرى للمولود، وتكمن قيمة هذا الطقس القولي (الأذان) في حماية المولود من الأذى وإبعاد الأرواح الشريرة عن الطفل وهو أمر يوضح مدى إيمان المجتمع بالقوة السحرية التي يحتويها الأذان وبسلطة الكلمة وتأثيرها في نفس السامع[16]، وعادة ما يستدعى الأهل شخص اسمه "محمد" لإسماع الأذان للمولود فتكون الدعوة إلى التوحيد أول ما يسمعه الوليد فيحرك وجدانه، رغبة في احتواءه وضمه إلى مجموعة انتماء.

2) **طقوس السبوع**:

بعد مرور أسبوع من الولادة، يتم تحميم المولود وتقوم جدته أو امرأة مسنة بدهن جميع جسمه بزيت الزيتون حتى تتغذى بشرته وتشتد، كما يتم تخضيب يديه ورجليه بالحنة ووضع الكحل على عينيه وحاجبيه وتعطيره، ثم يقمَّط المولود بواسطة قطعة طويلة من قماش يلف بها جميع الجسد، مرددة "اليوم في حجري والعام الجاي تجيني تجري" كنوع من التفاؤل والتمني بالصحة والعافية للمولود. ثم يتم إلباس المولود ثيابا جديدة وتوضع له التمائم، ثم تدور به إحدى جدتيه أو أمه في أرجاء البيت مرددين " الدار دارنا والأولاد ولادنا وهنا يجي النبي يزورنا " في جو من الفرحة والبهجة والزغاريد.

يمنح المولود في هذا اليوم "السبوع" اسما دالا على خروجه من صيغة المجهول إلى صيغة المعلوم والتعيين، وعلامة على اعتراف الجماعة به كائنا موجودا بينها، وتعد التسمية وسيلة من وسائل الدمج الاجتماعي للوليد، وشاهدا على انتمائه للدين، وعاملا من عوامل تجذيره في ثقافة لها مميزاتها الخاصة، وبذلك يكتسب هوية اجتماعية ودينية وتنطلق حياته الفعلية.

كانت عملية اختيار اسم المولود بالعائلة التقليدية من مهام الأكبر سنا فيها لاسيما الجد والجدة، وغالبا ما ارتبطت التسمية في العائلة التقليدية بتخليد الموتى، حيث يطلق عليهم أسماء الإباء والأجداد والإخوان والأخوات المتوفين، أملا في تخليد ذكراهم في من دخل الدنيا حديثا. كما أن المولود الذكر يتولى تسميته الجد، وفي صورة غيابه يتولى الأب ذلك، أما بالنسبة للمولود الأنثى فتقوم جدتها بتسميتها، أما الأم فلا حق لها في تسمية مولودها

وما عليها إلا أن تنتظر دورها عندما تصبح جدة[17]. تقوم الجدة بعد تسمية الفتاة، بوضع خيط احمر في معصمها، وتردد الجدة على مسامع الحاضرين "فلانة مسميا على ولد عمها" إي أنها زوجة افتراضية لابن عمها حتى يتم البناء بها، وهي عبارة عن ممارسة تتمثل في نذر البنت منذ ولادتها للزواج من ابن عمها.

تقيم العائلة يوم "السبوع" احتفاليّة على شرف المولود شكرا لله واستبشارا بقدومه، يدعى إليها الأهل والأقارب، وتعد الولائم وتقدم للعائلة الهدايا والتهانيّ، خاصة إذا كان المولود ذكر، أين تُذبح فيه العقيقة، وهي طقس ذكوري بما أن العق لغويا هو الشق والقطع، ومعنى ذلك أنها إعلان عن مفارقة المولود للرحم الكنان[18]، حيث يسود الاعتقاد في المخيال الجمعي أن لدم العقيقة الطاهر والمقدس قوة سحرية قادرة على حماية المولود وإبعاده عن عالم الجن وتطهيره من نجاسة دم النفاس النجس والخطير والذي يعد مصدر الأمراض والشر، فدم النفاس في تراث شعوب كثيرة دم سلبي يحدث النجاسة وتثير رؤيته الرعب في النفوس لأنه دم مهدد بالموت. أما الدم الذي يراق من الضحية، فانه دم ايجابي يرمز إلى القوة والحياة والبركة والنماء باعتبار أن الإنسان اسأله باختياره لتطهير المولود ومنحه القوة المنشودة ودمجه في الجماعة[19].

إضافة إلى طقس العقيقة والدم الذي يعد رمزيا عنصرا حيويا له قوة تعود بالنفع على المولود، يتماثل الريق مع الدم باعتباره وسيط مائي يتغلغل في جسد المولود لاعتقاد القوم في طاقته السحرية[20]، وإيمانهم بأثر الريق في حماية المولود من الأذى. وهو فعل رمزي معبر عن توقعات العائلة يقوم به الخال حيث يتفل في فم المولود ويزعم انه سيشبهه وسيشب على الفصاحة والكلام ويقال: "خول الطفل" أي شابه خاله.

من جهة أخرى تتحضر المرأة النفساء إلى زيارة أهلها بعد "السبوع" والبقاء عندهم، لتحاط المرأة النفساء برعاية خاصة باعتبار أن النفساء في المخيال الاجتماعي تقف على عتبة المقدس وتكون منتمية إلى عالمين، فمن الشائع أن يقال: "النافس قبرها مفتوح" باعتبارها عرضة لأي مرض طارئ يؤدي بحياتها إلى الموت خصوصاً إنها منهكة وفي حالة وهن وإعياء من تأثير الولادة على بنية جسمها، لذلك يحرص على سلامتها ولا يرد لها طلب، كما يحرص على تناولها الغذاء الجيد الذي تدخره لها أمها أو حماتها أو أختها ليعطى لها في أيام النفاس، وغالبا ما تبقى النفساء في بيت أهلها إلى الأربعين يوما.

3) طقوس الأربعون:

يعتبر اليوم الأربعون آخر يوم يُغلق فيه طقس الولادة واحتفاليتها، حيث تنهي الأم "النفساء" ارتباطها بالعالم السماوي حسب ما يعتقده المخيال الاجتماعي حول النفساء، فهي في هذه المرحلة تقف على عتبة المقدس وتكون منتمية إلى عالمين[21]، عالم علوي ملائكي، فأبواب الجنة مفتوحة أمام دعواتها طيلة الأربعين يوما مدة النفاس، وتعلن طقوس الاستحمام عودتها إلى العالم الدنيوي، إلى حالة الأنوثة والخصوبة والى الحياة العملية. كما أن بعد الأربعين يوما يكون المولود قد فتح عيناه على الدنيا وبدأ يتخطى مرحلة الخطر، وبذلك تكون الحلاقة في هذا اليوم طقس عبور للمولود من عالم إلى عالم آخر، ونقله من طور الطبيعة إلى طور الثقافة، وهي محاولة لإخراج المولود من حالة الضعف والوهن التي ولد عليها ليكسبه الحلق بعض الخصائص التي تساعده على اقتحام الحياة.

من الممارسات المصاحبة لعملية حلق الشعر في العائلة التقليدية، وزن الشعر والتصدق بالذهب أو الفضة بما يساوى وزن الشعر، إضافة إلى دفن الشعر في الأرض حتى لا يتم استعماله في إعداد الوصفات السحرية، وبذلك يجمع طقس الحلاقة بين الجذور الدينية والأسطورية، حيث ارتبط الشعر عند العديد من المجتمعات بمجموعة من الطقوس والممارسات باعتباره من أعضاء جسم الإنسان التي تكمن فيها القوة المقدسة "المانا"[22] وبذلك يعتقد أن الشعر مركز قوة في الإنسان وأن مجرد القبض على شعر شخص ما يعني الاستحواذ على كامل قواه ومقدرته.

كما ارتبط طقس الحلاقة في اللاوعي الجمعي الذكوري باعتباره فعل تطهيري ينطوي على جزء خارجي "جسدي" وجزء داخلي "روحي"، كحماية من الخطر الذي يرمز اليه الشعر حين يحلق. وعن الرغبة في انتزاع الطفل من العالم الأنثوي بأسرع وقت ممكن لتطعيمه بالقيم الذكورية[23]. كما أن حلق الشعر علامة على الرغبة في تحديد هوية المولود ودمجه في عالم الرجولة، وهي بداية خطوات يقطعها الرجل في سبيل فصل الصبي عن الأم وتخليصه من عالم الأنوثة، كأداة للتعبير عن استحواذ المجتمع الذكوري على أطفاله وسعيه إلى تثبيت الفحولة.

الخاتمة

تكشف معتقدات وطقوس الولادة، كحدث رمزي بالغ الأهمية في العائلة التقليدية، عن مجموعة من الدلالات والتصورات الرمزية التي تترابط بالنظام الثقافي الذي يتأسس عليه المجتمع، حيث عبرت هذه الدلالات الرمزية عن رؤية المجتمع للمرأة الولود والعاقر من خلال ثنائية الخصوبة والعقم، وهي ثنائية انثروبولوجية قديمة ترسخت في المخيال البشري، حيث وجد الإنسان أن أهم دور تقوم به المرأة منذ بدء الخليقة هو الخصوبة، فرأى في المرأة المعافاة الخصيبة الحامل رديفًا للأرض الخصبة المثمرة، ورأى أن المقدس، والقوة العظمى للوجود تكمن في صفات الإخصاب والولادة، واعتبر عقم الأنثى يمثل خطرًا على الحقول، فالمرأة العقيم كانت تزدرى لدى كثير من الشعوب القديمة، وكانت تشكل خطرًا على المحاصيل والخصوبة، وكانت الزوجة العاقر مؤذية للحديقة[24].

كما تكشف معتقدات وطقوس الولادة من جهة ثانية عن التمييز بين الذكورة والأنوثة، وهو ما تعكسه معتقدات التكهن بجنس الجنين، التي تدل على أن تحقق الحبل ليس فعلا بيولوجيا بقدر ما هو ممارسة اجتماعية مثقلة بالتمثلات الثقافية والتصورات الرمزية، التي يتم بموجبها الإعلاء من قيمة الذكر والحط من شأن الأنثى، وهي خاصية كونية تشترك فيها جميع الثقافات وترسخت في المخيال البشري باعتبار المولود الذكر أفضل من المولود الأنثى. كما تعكس هذه المعتقدات والطقوس في اللاوعي الجمعي نمط العلاقة القائمة بين عالم الرجال وعالم النساء، باعتبار أن طقوس الولادة "الأضحية والحلاقة" تهدف إلى نقل الطفل من طور الطبيعة إلى طور الثقافة وهي بداية خطوات يقطعها الرجل في سبيل فصل الصبي عن الأم وتخليصه من عالم الأنوثة وغرس قيم الذكورة ودمجه في عالم الرجولة.

قائمة المصادر والمراجع:

01. آمال قرامي، الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية دراسة جندرية، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2007.
02. إليزابيث كريمو، وضعية المرأة في العالم، ترجمة حنان قصبي ومحمد الهلالي، ط1، دار توبوقال، الدار البيضاء، المغرب، 2015.
03. ديورانت، ول، قصة الحضارة، ج1، م1، ط3، ترجمة زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة الترجمة والنشر.
04. محمد الجوهري، الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية، ط1،ج1، دار الكتاب، القاهرة، مصر، 1978.
05. نور الدين طوالبي، الدين والطقوس والتغيرات، ترجمة وجيه البعيني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988.
06. سميرة مناد، "الزعامة النسوية في المخيال الاجتماعي"، مجلة إنسانيات، عدد: 29-30، سنة2005 .
07. سعيدي محمد، "المائدة وهوية انتماء العائلة التقليدية المغاربية دراسة انثروبولوجية رمزية"، مجلة الفكر المتوسطي، العدد 11، جوان 2016.
08. علي مكاوي، الانثروبولوجيا الطبية دراسات نظرية وبحوث ميدانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1994.
09. فاطمة جراد، العائلة والحياة العائلية بجهة تطاوين، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، تونس2015.
10. فراس السواح، دين الإنسان، ط 1، دار علاء الدين، دمشق ،1994.
11. فراس السواح، الأسطورة والمعنى، منشورات علاء الدين، ط1، دمشق، سوريا، 1977،
12. فرنسواز ايريتيه، ذكورة أنوثة فكرة الاختلاف، ترجمة كاميليا صبحى، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003.
13. خولة الفرشيشي، الجسد في الحمام، ط1، نقوش عربية، تونس، 2017.
14. Lacost- dujardin (camille), Des mére contr les femmes: maternité et patriacat au Maghreb, Paris: Edition la découverte, 1985

الهوامش:

[1] محمد الجوهري، الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية، ط1،ج1، دار الكتاب، القاهرة، مصر، 1978، ص45

[2] علي مكاوي، الانثروبولوجيا الطبية دراسات نظرية وبحوث ميدانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1994، ص255

[3] نور الدين طوالبي، الدين والطقوس والتغيرات، ترجمة وجيه البعيني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص 35-36

[4] فراس السواح، الأسطورة والمعنى، منشورات علاء الدين، ط1، دمشق، سوريا، 1977، ص21.

[5] سعيدي محمد، "المائدة وهوية انتماء العائلة التقليدية المغاربية دراسة انثروبولوجية رمزية"، مجلة الفكر المتوسطي، العدد 11، جوان 2016، ص 12

[6] محمد أركون، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، ترجمة هشام صالح، ط2، دار الساقي، بيروت، لبنان، 1995، ص12

[7] سميرة مناد، "الزعامة النسوية في المخيال الاجتماعي"، مجلة إنسانيات، عدد: 29-30، سنة 2005، تاريخ التصفح الساعة 13:00، يوم 2017/03/11، الرابط:

http://journals.openedition.org/insaniyat/4460

[8] محمد أركون، مرجع سابق، ص12

[9] فاطمة جراد، العائلة والحياة العائلية بجهة تطاوين، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، تونس، 2015، ص381.

[10] فرنسواز ايريتيه، ذكورة أنوثة فكرة الاختلاف، ترجمة كاميليا صبحي، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003، ص 239.

[11]فاطمة جراد، مرجع سابق، ص41.

[12] إليزابيث كريمو، وضعية المرأة في العالم، ترجمة حنان قصبي ومحمد الهلالي، دار توبوقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2015، ص 14.

[13] المرجع نفسه، ص 34.

[14] Lacost- dujardin (camille), Des mére contr les femmes: maternité et patriacat au Maghreb, Paris: Edition la découverte, 1985, p.57

[15] Ibid, p.83

[16] آمال قرامي، الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية دراسة جندرية، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2007، ص72

[17]فاطمة جراد، مرجع سابق، ص383

[18] آمال قرامي، مرجع سابق، ص71

[19] المرجع نفسه، ص 74

[20] المرجع نفسه، ص76

[21] خولة الفرشيشي، الجسد في الحمام، ط1، نقوش عربية، تونس، 2017، ص146

[22] فراس السواح، دين الإنسان، ط 1، دار علاء الدين، دمشق ،1994، ص 187

[23]آمال قرامي، مرجع سابق، ص41

[24] ديورانت، ول، قصة الحضارة، ج1،م1، ط3، ترجمة زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة الترجمة والنشر، ص 73